فكاهات

تأخرت علينا الرواية هذه المرة فرأينا ان نستعيض عنها بشيء من مستملح الاقاصيص العربية ننقلهُ عن تعاليق من خط المرحوم الوالد كان يتشاغل بها في بعض اوقات فراغهِ • وهي ولا ريب تفضل الروايات الموضوعة. بانها حوادث واقعية يجمل حفظها والتجمل بها في المحاضرات والمسامرات وليس منها الا ما يتضمن ادباً او عبرة او ضرباً من ضروب الحكمة وان آنسنا لها ميلاً في نفوس القرآء اوردنا منها المرة بعد المرة ما يعذب وروده على الاسماع ولا تثقل مؤونتهُ على الطباع

فمن ذلك ان رجلاً من بني اسد يقال لهُ خزيمة كان يتاجر من البادية الى دمشق بالحبوب والمواشي فجمع مالاً جزيلاً وأقام بها يتعاطى التجارة الحضرية • وكان فصيحاً لبيباً حسن المحاضرة وكان يتردد الى باب سليمان بن عبد الملك من خلفآء بني امية فحظي عنده وتقرَّب منهُ حتى صار من جلسآئهِ وأقام على ذلك مدةً طويلة • ثم سافر الخليفة الى الديار المصرية فاقام بها زماناً ثم تحول الى غزَّة هاشم فمكث هناك وفي اثنآء ذلك اصيب خزيمة في مالهِ وانقلب عليهِ الدهر فافتقر حتى لم يبق عنده شيء من المال فصار يبيع من امتعة بيتهِ حتى لم يبق الا خاتم في يدهِ فباعهُ واشترى بثمنهِ دقيقاً وقال لامرأتهِ ان الله قضى عليَّ بما ترين وانا رجل عزيز النفس لا اتذلل للناس وقد عزمت ان اغلق بابي واحتبس في هذا البيت الى ان يفرغ هذا الدقيق فان فتح الله عليَّ والا مت جوعاً ولا اذل نفسي لسؤال احد من الناس فان شئت فاذهبي الى بيت ابيكِ ودعيني على هذه الحالة • فقالت معاذ الله بل ان عشت اعيش معك وان متَّ نموت جميعاً

وكان الخليفة عند سفره قد أقام نائباً في دمشق يقال لهُ عكرمة بن فياض وكان بعض جيران خزيمة قد اطلع على حالهِ وعرف ما عزم عليهِ فذهب الى عكرمة

وقص عليهِ القصة • فقال لهُ يا رجل ان المصابين بالرزايا كثيرون وان اردنا ان نساعدهم صرنا عن قريب مثلهم وليس من يساعدنا فليتوكل كل مخلوق على خالقهِ فرجع الرجل بالخيبة وقد اثر ذلك في قلبهِ اثراً شديداً • واما عكرمة فلما انتصف الليل اخذ كيساً فيهِ الف دينار وانطلق الى بيت خزيمة وقرع الباب فخرج اليهِ خزيمة وهو لم يعرفهُ وقال ماذا تريد فقال اني قد علمت بما انت عليهِ وفي يديّ فضلة مال اردت ان تتعلل بها الى ان يفتح الله عليك بغيرها ودفع اليهِ الكيس • فقال خزيمة يا مولاي قد قبلت نعمتك ووجب الشكر عليَّ لله ثم لك فمن انت • قال انا رجل من خلق الله لا يلزمك ان تعرفني • فألحَّ عليهِ اشد الالحاح وهو يتمنع فامسك بهِ وقال لا بدَّ من ذلك فقال لا يمكن ان اصرح لك باسمي ولكن اقول لك اني اخو عثرات الكرام وافلت منهُ وانصرف • فدخل خزيمة بالكيس الى امرأتهِ ودفعهُ اليها وقال ها قد رزقنا الله ببركة طويتك المخلصة وحدثها بحديث الرجل وهو يتعجب من مروءتهِ ويتأوه لعدم معرفتهِ اياه • واما عكرمة فانهُ عاد الى بيتهِ في اواخر الليل فانكرت عليهِ زوجتهُ ذلك الخروج ليلاً واتهمتهُ بالسوء وهو لا يريد ان يخبرها فصار يموه عليها وهي لا تصدق الى ان اشتدت المخاصمة بينهما وكان قد استصحب عبداً لهُ الى بيت خزيمة فدعاه وقال اخبرها بما كان فحدثها بالقصة حتى اطمأنت وخمد غضبها

هذا ولما اصبح خزيمة خرج الى السوق فاشترى ما يصلح بهِ شأن بيتهِ ثم عاد الى ممارسة التجارة فأتاه التوفيق ورجع الى ما كان فيهِ من الميسرة • وحينئذ حدثتهُ نفسهُ بزيارة الخليفة في غزة فذهب الى ان دخل عليهِ فاكرمهُ الخليفة على عادتهِ وباسطهُ واستأنس بهِ وعاتبهُ على انقطاعهِ عنهُ في تلك المدة المستطيلة فاعتذر اليهِ بما جرى لهُ وقص عليهِ القصة بتمامها • فتأسف على مصيبتهِ وسرَّ بصلاح حالهِ وتعجب من مروءة ذلك الرجل وهو يشتهي ان يعرفهُ ليكافئهُ على صنيعهِ ولكن لم يكن الى ذلك سبيل • فأقام خزيمة عنده اياماً ثم استأذنهُ في الانصراف فاعطاه توقيعاً بتحويل نيابة دمشق اليهِ وان يحاسب عكرمة على ما ورد اليه من الاموال السلطانية

فان تأخر عليهِ شيء منها يحبسهُ الى ان يقوم بادائهِ • ولما حضر خزيمة دفع امر الخليفة الى عكرمة فقال سمعاً وطاعة وتولى خزيمة النيابة وامر بمحاسبة عكرمة فانكسر عنده مال جزيل فالقاه في السجن وجعل القيد في رجله الى ان يدفع المال • فأقام على ذلك اياماً وهو لا يستطيع ان يدفع شيئاً ولا يريد ان يعرّف خزيمة بنفسهِ وكانت زوجتهُ تراسله وتحثهُ على ذلك وهو يقول انني لا اريد ان اضيع ثوابي عند الله واجعل ما صنعتهُ لوجههِ الكريم واسطةً لخلاصي من السجن • ولما تمادى الامر عليهِ وثبت زوجتهُ من بيتها حتى دخلت على خزيمة وقالت لهُ يا خزيمة هل تعرف اخا عثرات الكرام • قال لا والله ولكني اشتهي ان اعرفهُ • قالت هو الذي الآن في سجنك وقيدك في رجله • قال وكيف ذلك فقصت عليهِ القصة كما كانت بينهما • فاسرع من فوره الى السجن وعكف على عكرمة يقبل يديهِ ورجليهِ وخلع القيد من رجل عكرمة ووضعهُ في رجله وقال انا احق بهِ منك فعد الى منصبك وانا خادم لك • فقال عكرمة هذا لا يكون ولا بد من انفاذ امر الخليفة • واخيراً خرج بهِ خزيمة من السجن وارسله الى بيتهِ عزيزاً مكرماً وكتب الى الخليفة يخبره بذلك الحديث العجيب فابتهج الخليفة بذلك وكتب اليهِ اني قد اعطيتك نيابة دمشق فلا ارجع فيها واما عكرمة فقد سامحتهُ بما عليهِ من الاموال السلطانية وليكن نائب قطر الشام باسره وانت بعض عماله عليهِ وكان كذلك

* * *

ويقرب من هذا ما حكي من انهُ كان في بغداد شيخ من الفقرآء يقال لهُ الشيخ ابرهيم الواقدي ولهُ صديق مثله من اهل المدينة يقال لهُ الشيخ اسمعيل وصديق آخر من اهل البادية يقال لهُ الشيخ احمد وكانوا يجتمعون في اكثر الاوقات ويتحدثون جميعاً • فلما كان اليوم الذي قبل يوم العيد قالت امرأة الواقدي لهُ يا ابا محمد لا بد ان يحضرنا غداً أناس وليس عندنا ما نكرمهم بهِ فينبغي ان تسعى بشيء من الدراهم • قال نعم وكتب الى صديقهِ الشيخ اسمعيل انهُ اذا كان في يده فضلة مال يرسل لهُ ما شآء الله فما ابطأ الرسول حتى رجع وفي يده كيس مختوم فوضعهُ

بين يديهِ واذا برسالة من صديقه الشيخ احمد يطلب منهُ نفقة للعيد فارسل اليهِ الكيس بختمهِ • ولكنهُ بعد ذلك لم يأمن لسان المرأة وخاف ان يكون ذلك سبباً للخصام بينهما فخرج من بيتهِ وقضى نهاره في المدينة الى المسآء ونام تلك الليلة في الجامع ومن الغد دار ساعةً في المدينة ثم فكر في نفسه ان ما فرَّ منهُ لا بد ان يقع فيهِ اي وقت عاد الى بيتهِ فرجع • فالتقتهُ المرأة بالبشاشة وسألتهُ عن غيبته فاخبرها بالخبر فقالت لهُ قد ألزمت نفسك ما لا يلزم ونحن نحسب ان ما ذهب لم يأت فطابت نفسهُ وقال حياك الله من امرأة صالحة• و بينما جلس اذ حضر الشيخ اسمعيل و بيده الكيس مختوماً وقال هذه بضاعتنا ردَّت الينا • فعجب الشيخ الواقدي وقال كيف ذلك • فقال اني حين ارسلت اليَّ لم يكن عندي شيء من المال سوى ما في هذا الكيس فبعثت بهِ اليك واذ لم يبق في يدي شيء ارسلت اطلب من صديقنا الشيخ احمد لعل عنده فضلة مال فعاد الرسول من عنده بالكيس فكيف وصل اليه • قال انهُ عند وصوله اليَّ حضرتني منهُ بطاقة يطلب نفقة للعيد وكان الكيس قد بقي مختوماً فارسلتهُ اليهِ • ولما كان الكيس قد دار على الثلاثة و بقي مختوماً لم يتناول احد منهم درهماً استحضر الواقدي الشيخ احمد وفتح الكيس وتقاسموه لكل واحد ثلاثمائة درهم واعطوا امرأة الشيخ الواقدي المائة الباقية• وكان ذلك في ايام الخليفة المأمون فبلغهُ الخبر فارسل لهم الف دينار وامرهم ان يتقاسموها كذلك فاخذ كل واحد منهم ثلاثمائة دينار وامرأة الواقدي مائة دينار

* * *

وحكي عن معن بن زائدة الشيباني احد اجواد العرب المشاهير انهُ كان في اول امره من سوقة الناس ثم رزق التوفيق فارتقى الى ان صار امير العراق• وكان في زمن الخليفة المنصور العباسي فغضب عليهِ لوشاية سعي بها اليهِ فاراد قتلهُ • وكان معن يومئذ في بغداد فانذره صديق لهُ فاختفى عنده في بيتهِ وطلبهُ الخليفة فلم يظفر بهِ• و بعد فراغ جهده نادى ان من اتاه به يعطى مئة دينار فصار ذوو الطمع يبحثون عنهُ ولا يهتدون اليهِ • ومكث معن في مختبئهِ الى ان ضجر وضاق صدره فعزم على

الفرار وكان ابيض اللون فصار يجلس يستقبل الشمس بوجههِ حتى لذعتهُ فاسمرَّ ثم استحضر ثياباً من ملابس العرب وبعيراً فلبس تلك الثياب وركب البعير وتلثم وخرج والناس في صلاة الجمعة حتى انتهى الى باب المدينة وكان يخشى ان يعترضهُ احد الواقفين عليهِ فلم ينتبه لهُ احد وخرج منهُ الى الطريق وهو قد اطمأن الى النجاة • فما ابعد عن الباب الا مسافةً قصيرة حتى اخذ رجل بخطام بعيره وقال انزل يا معن • فقال ما لك يا رجل • قال انت معن بن زائدة فانزل الى مقابلة الخليفة • فحلف لهُ انهُ ليس بمعن ولا يعرفهُ فلم يصدق واذ كان لا يزال قريباً من الجنود اضطرَّ ان ينزل ثم قال لهُ يا رجل صدقت انا معن واني اعلم انك طامع في المئة الدينار وانا قد بقي معي هذا العقد وهو يساوي عشرة آلاف دينار فخذه وخلِّ سبيلي ولا تجعل دمي في عنقك • فقال الرجل يا معن انت الرجل المشهور في الكرم • قال الناس يقولون ذلك • فقال هل اعطيت مرةً نصف مالك قال لا • قال هل اعطيت ثلثهُ قال لا • قال فربعهُ قال لا • فما زال يتدرج الى عشر مالهِ فاستحى ان لا يزال يقول لا فقال قد اكون فعلت ذلك • فقال انا جندي اعيش انا واهل بيتي من رزق الخليفة وهو عشرون درهماً في الشهر وقد تركت الدنانير التي آخذها من الخليفة عليك وسمحت لك بهذا العقد فاركب بعيرك وانطلق بالسلامة • فقال معن لا والله لا اسير خطوة ما لم تقبل هذا العقد مني • فقال وانا والله لا ادعك تمشي خطوةً ما لم تأخذ عقدك وتقطع هذا الحديث • فركب معن بعيره واثنى على الرجل وانطلق ينهب الارض حتى دخل بين قبائل العرب واختفى هناك

وكان في تلك الايام قد حدثت فتنة بين العرب والخليفة ووقعت بينهم عدة وقائع فشل فيهِ عسكر الخليفة فلما تمادى الامر على ذلك ركب الخليفة وباشر الحرب بنفسهِ فالتقى الجيش بالجيش وانتشب القتال بينهم وكان معن قد خرج مع العرب وتقدم حتى صار بازآء الخليفة المنصور واذا رجل من العرب قد هجم على الخليفة واهوى بالسيف عليهِ فاقتحمهُ معن وضربهُ بالسيف فقطع يده وافرج عن الخليفة • فقال الخليفة حياك الله يا رجل من انت قال انا معن بن زائدة الذي

يريد الخليفة قتله • فقال لا عاش من يقتلك عليك الامان • فانحاز معن الى معسكر الخليفة وجاهد معهُ في القتال فكانت النصرة على يده لانهُ كان في الشجاعة كما كان في الكرم والحلم و بعد رجوعهِ الى بغداد اعاده الى امارة العراق وانعم عليهِ انعاماً جسيماً • ولما استقرَّ معن في امارتهِ وخلا بالهُ لم يكن لهُ هم الا البحث عن الجندي الذي اعترضهُ في الطريق لكي يكافئهُ على صنيعهِ فلم يظفر به وكان يجتهد في ذلك مدة حياته ولا يتيسر لهُ فكانت حسرة في قلبهِ حتى مات

* * *

ومن مستملح الاحاديث ما حكي عن الامام الشافعي انهُ اراد السفر الى مصر بقصد افادة الناس لوجه الله فاخذ الكتب التي يحتاج اليها للتدريس وركب جواده وسار • و بينما هو سائر صادف رجلاً ماشياً في الطريق فسألهُ الى اين يذهب فقال الى مصر فقال انت رفيقي في هذا السفر فلنسر على بركات الله • ولما قطعا مسافةً شعر الامام بان الرجل قد تعب من المشي فترجل وامره بالركوب فركب ومشى الامام قدامهُ ثم ترجل الرجل فركب الامام وصارا يتعاقبان كذلك في جميع ذلك السفر وحيثما ادركهما المسآء ينزلان فيبيتان معاً والامام يحاسب عنهُ وينفق عليهِ • ولما وصلا الى مدينة القاهرة كانت نوبة الرجل في الركوب فلم يترجل ودخل راكباً والامام يمشي بين يديهِ حتى وصلا الى الخان فترجل وحينئذ تقدم الامام ليربط الفرس و يأخذ خرج الكتب فدفعهُ الرجل وقال ما لك وللفرس انا اربط فرسي حيثما اريد • فقال الامام ما هذا يا فلان وماذا عرض لك فقال من انت يا رجل فاني لا اعرفك • فقال الامام قد سمحت لك بالفرس فاعطني خرج الكتب التي كابدت هذا السفر لاجلها فقال الفرس فرسي والخرج خرجي فماذا لك عليهما • فجزع الامام جزعاً شديداً لان الفرس في يد الرجل وليس للامام بينة على انها لهُ فجلس ناحيةً منكسر القلب • و بينما هو كذلك مرَّ بهِ رجل من اكابر المدينة فرأى عليهِ ابهة الكرامة فسألهُ عن امره فقص عليهِ القصة • فانطلق بهِ الى القاضي ودخل قدامهُ وقال هذا الامام محمد بن ادريس الشافعي يريد الدخول

عليك . فوثب القاضي الى استقباله وقبل يده واجلسهُ في مكانهِ وجلس بين يديهِ ثم سألهُ عما اتى فيهِ فاخبره فقال يا مولاي انت تعلم بانك والحالة هذه لا سبيل لك على الرجل شرعاً . فقال الرجل الذي اتى بهِ ان اذن لي المولى فانا اتولى امر هذا الخائن فليأمر باحضاره الى هنا . فارسل القاضي واحضره الى المحكمة فادخله الرجل الى مكان واخذ بيده سوطاً وسقط عليهِ كعارض المطر وهو يقول يا عدو الله قل لي لمن الفرس . فاعترف انها للامام واذ ذاك ارسل فاتى بها و بالخرج وسلمهما الى الامام وحكم القاضي بطرد الرجل عن المدينة من يومهِ

* * *

ويحكى عن زيد بن الجون المعروف بأبي دلامة ان ابنهُ دلامة مرض في بعض الايام فاستدعى لهُ الطبيب وكان مرضهُ شديداً فشارطهُ على خمسمائة درهم واخذ في علاجهِ حتى شفي . و بعد ذلك حضر الطبيب يطلب الدراهم وكان ابو دلامة فقيراً فقال اني والله لا املك خمسة دراهم وانما ارتضيت باشتراطك لشدة الحاجة . فقال الطبيب وانت تعلم ان هذه صناعتي التي اعيش بها فلا استطيع ان اترك المال . فتحاورا ساعة ورأى ابو دلامة ان لا بد من ذلك فقال لهُ ان اليهودي فلاناً عنده مال كثير لا حاجة لهُ بهِ فانت تدّعي عليهِ بهذه الدراهم عند القاضي ومتى طلب منك البينة احضر انا ودلامة ونشهد لك . فارتضى الطبيب بذلك وذهب على هذا الوجه . وكان القاضي يومئذ الشيخ عبدالله بن شبرمة فاتاه الطبيب وادعى على اليهودي بخمسمائة درهم فاستحضر القاضي اليهودي وسألهُ عن الدعوى فانكر انكاراً شديداً وحلف بالاقسام العظيمة انهُ لا يعرف المدعي ولا سمع بهِ البتة . فطلب البينة من الطبيب فاحضر ابا دلامة وابنهُ فشهدا لهُ بصحة الدعوى . وكان القاضي قد ارتاب في المسئلة ولم يطمئن الى شهادة ابي دلامة لعلمه انهُ غير ثقة فصرف الشاهدين وجمع ما معهُ حينئذ من الدراهم وكان عنده جماعة من اهل الصلاح فاستتم منهم الباقي لمطلوب الطبيب ودفعهُ اليهِ وقال لليهودي لا شيء عليك فانصرف